هواجس النفس

بين العامين

ضافني السهاد ليلة امس فسامرته حتى سئمت ، فمقته ورحت استدعي النوم الساعة والساعتين ، فبقي شارداً ، فقلت : لا حول ولا ... ثم اشعلت المصباح ادفع به وحشة الظلام

وكان قد نام سكان الدير ، وسكتت الحركة ، فلم اعد اسمع الاّ دقات ساعتي ، كأنها تقول : الزمان يزول ... فشعرت بوجيب قلب وخشوع ، فقلت لنفسي : يا نفس لك من هذا السهاد فرصة ثمينة فاغتنميها ، وتأملي قليلاً في شأنك ، فما قليل تصيرين الى موقف بين عامين ، مودّع ومسلم ، وتلك وقفة قلّ من استفاد منها . راجعي كتاب الماضي ، وافتحي كتاب المستقبل ، لكن الامس قد عرفتهِ ، فتطلعي اذن الى الغد . جولي في فضاء الخيال ثم لقني قلمي ما يمرّ بك من الهواجس ، واملي عليه ما به تشعرين !

فشعرت ان نفسي قد توقفت هنيهة كأنها رازحة تحت احمال الانفعال والتأثر . هذا وحفيف الاوراق يزيد في وحشتي ، وعقرب الساعة لا يزال يسير ، فنظرت فاذا العام قد دخل في النزاع واوشك ان ينقضي أجله

فانقبضت اذ ذاك نفسي واندفعت تقول :

الى اين ايها العام انت مهرول في هذا الليل الدامس ؟ وفي احدى يديك مشعل يكاد ضوءه ينطفي ، وفي الثانية منجل مفلل .. وعلى مَ أخذتَ معاجيل الطرق وعلى ظهرك احمال الايام تنوء بها ؟ .. رويدك

رويدك فان طريق الماضي وعرة متحدرة ، والظلام مدلهم وانت شيخ مسن

فالتفت الي فاذا وجهٌ جمدتهُ الهواجس ، وشعرٌ متلبدٌ شعثتهُ الوساوس ، وكتفان تقوستا من قِراع النوائب ، وقال وهو مسرع : « دعني لا تلهني ، فان الاعوام رفقائي قد تقدمتني الى محطة الابدية . » . . . ولم يكد ضياء مشعله يتوارى في ظلام الزمان ، حتى قرع اذني صوت الساعة الكبيرة فكان نصف الليل ! ! ! . . .

*
* *

فالتفتُّ اذ ذاك استقبل تباشير العام الجديد ، فرأيته وقد أقبل على مركبة ملكية لابساً حلة الشباب البهية ، فتفرست في تلك المركبة الكبيرة ، فاذا فيها من الذخائر العجيبة ما يكاد القلم يقصر عن وصفه

رأيت فيها اشواك الشقاء وقد اشتبكت بازهار الهناء ، ومن ورائهما برفير الملوك وأطمار رثة تبين من خلالها يد المتسول مفتوحة للاستعطاء . وسريرٌ يبدو منه رأس الطفل الصغير ونعوش اغنياء وتوابيت فقراء ، وسمعت ضحكاً وبكاء ، ورأيت عدلاً رافعاً لواء الحق ، وظلماً ناشراً راية البطل ، وفضائل بصورة راهبة قد جثت امام سرير المنازع ، ورذائل شنعاء بهيئة السكارى ، ورأيت النميمة تدبّ عقاربها ، والرصانة كالاسطوانة الراسخة ، والشراهة كانها حوت على مائدة ، والقناعة وقد نبتت حواليها اعشاب الذساك والزهاد ، الى اشياء أخر كثيرة من بندقية قانص الطائر ، وشبكة صائد السابح ، وسكة الفلاح ، وعكاز الاعرج وسرير المقعد ، وشبّابة الراعي ، وريشة المصوّر وقلم الكاتب ، وكتاب الزاهد ، ولجج فاغرة فاها ، واوبئة

تنتشر جراثيمها ، ونيران يتصاعد لهيبها ، ورياح تعصف ، ورعود تقصف ، وسكون وسلام ، وحروب ودماء

فبهتُّ امام هـذا المشهد الهائل ، ثم قلت : يا نفس لقد رأيتِ ما رأيتِ فقولي لي الآن ما تشتهين في رأس هذا العـام والى مَ تتوقين ؟ ثم قلت : مهلاً فاني قبل ان تختاري أودّ ان اريك بعين الحقيقة ما قد رأيته بعين الفكر

***

لما تنفس الصبح كنت على ظهور « الاشرفية » حيث يبدو للناظر بقعة خضراء بسقت فيها الاشجار ، تطّرد تحتها مياه النهر ، وهي تنساب متسابقة الى البحر فتغور في اللجج . فجلست على صخرٍ وقد حان وقت بزوغ الشمس ، وسكن نسيم الصبح ، فراحت العصافير تتنقـل على الاشجار وأخذت الطبيعة تنهض من سبات النوم ، والحياة تتجدد في الاعشاب ، والدخان يتصاعد من فوق البيوت حيث تُسمع قلقلة المفاتيح والاقفال وصرير الابواب وعويل الاطفال . ثم اخذت المنـاظر تتضح شيئاً فشيئاً وما هي الا بضع دقائق حتى بزغت الشمس من وراء الافق ترسل حرير شعاعها يمسح دموع الازهار . وكانت بارتفاعها تشرف على الغيوم المنتثرة فتفر هذه مسرعة امام ملكة الطبيعة . وصارت فقاقيع مياه النهر تتألق لامعة كأنها تفتح وتغمض . والتلال تيقظ السهول لترتدي أردية الجلاء

فقلت يا نفس امامكِ من الطبيعة مشهد طالما شبب به الشعراء ،

فتطلعي وابتهجي وقولي لي ، أتريدين ان انصب لكِ على هـذه التلال خيمة منها تملكين هذه البرية الجميلة ؟ ... فآنست من نفسي انعطافاً كأنهُ يقول : أجل ان المشهد لباهر ولكن ليس هنالك كل رغائبي

فقلت لها : ارفعي النظر قليلاً ، وانظري الى « لبنان » العزيز ، وطن الاسود وارض الاولياء . هاك « صنين » وقد جلس على القُنَّة شيخاً جليلاً فصبحيهِ مع الشمس في رأس العام ، وتمني له شيخوخة صالحة واطلبي لبنيه ان لا يُقلقوا راحة ابيهم الشيخ ، وقد شيبت رأسه الاعوام وحدَّبت ظهره الايام . تلذذي بما يحمله اليك النسيم من منعطفات الوديان واستنشقي شذا الارز ونفحات الرياحين . تقلي النظر في هاتيك القرى المنتثرة هنا وهناك ، وانظري القرويين وقد هبوا لاشغالهم . خذي النظارة وانظري الرعيان على هاتيك الروابي وقد سرحت قطعانهم ترعى في المراعي الخصيبة . هاك الشبابات في أيديهم ، ولو كنا على مقربة منهم لسمعنا الحانهم الرقيقة . وها إنّ المكارين ايضاً ينزلون في معاجيل الطرق وهم يترنمون على ظهور دوابّهم ويتغنون « بالميجانا والعتابا » . آه ما اجمل الجلوس في ظلال تلك الاشجار الوارفة وما أحيلى المقام في هذا الجبل المقدّس . فقولي لي الآن أتريدين أن تكوني أميرةً على لبنان فتحيي فيه الشهامة والمروءة وترجعي اليه ما ماتَ من الفضائل الى الحيوة ، وتقلعي ما زُرع فيه من زروع الفساد فتخفق فوق روابيه رايات الأمن والسلام ؟

فتململت ثمّ قالت : ذلك من أفضل الامور ولكن ليست لذّتي في التسلط على الشعوب فعجبت لأمرها وذهبت بها الى شاطىء البحر

وهنالك الحصى البيضاء منتثرةً فوق الرمال كأنها اللآلىء على بساطٍ من حرير . وعلى الشاطىء صيادٌ مشمرُ السافين وقد غاصت قدماه في زَبد الامواج، وألقى الشصّ في الماء ووقف ينتظر النصيب . فأسرعت الامواج الينا كأنها تريد السلام فكانت تحني الرؤوس وتعود الى اللجج . وهنالك قوارب نشرت الشراع فهبّ فيها نسيم التوفيق ، فمخرت تشقُّ المياه تاركة من ورائها خطوطاً طويلة لا تلبث أن تغمرها المياه

ثمّ صفرت باخرةٌ ومرّت ترشق الفضاء بدخانٍ يحموم ، وعلى ظهرها المسافرون يلوّحون بمناديلهم وداعاً لمن يشيعونهم بالعيون والقلوب . فقلت لنفسي : أتشائين السفر الى الاصقاع البعيدة فنسيح ونتنزّه في جنات الاندلس ونرى ما ترك العرب فيها من آثار العظمة ثم ننتقل الى فرنسا ربّة البدائع . ثم نيمّمُ ايطاليا فنفكه السمع بالانغام الموسيقية وذلك مما يطيب لك جداً ونشخص الى رومة مقام السيادة المسيحية ونزور الديامس حيث رفات الشهداء ، ومن هنالك نتوجه الى المانيا فنتوغلُ في غاباتها . ونرتحل الى روسيا لنرى قبابها العالية ونرسل النظر في هاتيك السهول الواسعة . ثم نرجع الى بحر الروم فنصعد من يافا الى الارض المقدسة فنزور المغارة التي بزغ منها نور الخلاص وجرى ماء الحيوة ، وبستان الزيتون والجاجلة التي تتبرّك الشفاه بثم ترابها . ثم نجتاز مضيق السويس الى البحر الذي عبره بنو اسرائيل بالاقدام ، ومن هناك يمتد نظرنا الى بادية العرب ارض الشعراء ، والى افريقيا فنجتازها من اهرام الفراعنة ، الى ارض الترنسفال التي حشا الله جوفها بالالماس ونمرّ بشواطئ الهند

حيث اللآلئ وتتفرج على الاواني الصينية البديعة الصنع . واذا شئت واصلنا السير الى اليابان فاميركا فاوستراليا ، ولا ندع ارضاً وطئتها اقدام الرّحل والسياح الاّ دخلناها . فهل تسرّين بذلك ؟

فاجابت : حبذا الاسفار ففيها نزهة الابصار والافكار ، ولكن ليس في ذلك ما يشبع رغبتي ويتمّ لذّتي

فحرت في امري وقلت لها هلمي الى الحقول فنبذر البذور ونستغل الغلال ونشحن السفن ونتجر التجارات الواسعة ونعدن المعادن ونكثر من المعامل ، فنربح الارباح الطائلة ونجمع من الذهب القناطير المقنطرة ، فنبني الدور ونشيد القصور ونكثر من الخدم والحشم وندعو بالمغنين والمطربين والراقصين ونأدب المآدب ونحتسي كؤوس الشراب مع الندماء والاحباب . فما تقولين في ذلك . أما تشتهين ان تسبحي في غنى الارض وملاذها ؟

فعبست وقالت : كلاّ ! . . ليست في ذلك راحتي

فقلت : لعلّ الدرسَ يطيب لها . فسألتها : اتريدين الانصباب على الدرس لتكوني في مستقبل الحين عالمةً في الطبيعيات والكيمياوالرياضيات والفلسفة والطبّ . فتكشفين سرّ الكهرباء وتوسعين حدود علم النجوم ، وتظهرين اجساماً جديدة وتخترعين قواعد حسابية وتكشفين عن ادقّ اسرار النفس وتوجدين دواءً لكل داء . أو تودّين أن تكوني موسيقياً بارعاً يتسلطُ على النفس بانغامه فيضحك الثكلى ويسيل أجمد العيون . أو تشتاقين أن يكون لك ريشة تحقرُ أبدع ما اتى به رافائيل وميكالنج ، أو

قلمٌ يصوّر ارق العواطف فيلقي في زوايا النسيان اولئك الشعراء المشاهير هوميروس وڤيرجيل وامرأ القيس وشاكسبير ودانت وراسين . . أو أن تكوني خطيباً مصقعاً يقتاد الشعوب ، ويهزُّ بقايا آثينا ورومة وطن أمراء الخطابة . أو نقاشاً يُدهشُ أرواح اليونان في قبورها . او قائداً يكسرُ على ركبته سيوف الاسكندر والقيصر ونابوليون ؟ . وإخالك الآن لا ترفضين . فتوقفت ثمّ قالت : انّ مجد العلوم والفنون لمما يفضلُ على جميع ما سواه . ولكنّ رغيبتي فوق كل ذلك ؟

فوقفت وقفة المتحير وقد فرغت جعبةُ مسائلي فقلتُ: وَيلكِ ان في امرك لعجباً ! لقد عرضتُ عليك كلّ ما يتوقُ اليه المرء في هـذه الدنيا وأنتِ عن كلّ ذلك ترغبين،فلقد والله أبرمتني وأسأمتني . . فالى الدير ! .

ثم قفلتُ راجعاً الى غرفتي مطرقاً مبلبل البال وقضيتُ النهار مفكرًا

ولما كانت العشية خشيت ان يضيفني السهاد كما ضافني أمس . فصعدت الى السطح قرب الساعة الكبيرة ، وكانت الشمس في المغيب والدغشُ مقبلٌ ليغشي الارض فكانت المناظر تذهب تباعاً ، وما هو الا قليل حتى ارخى الليل سدوله وغيب البرية الظلام . فظهرت النجوم تتألق في الفضاء ببهاءٍ يسحر العيون ويأخذ بمجامع القلوب .

وكانت نفسي اذ ذاك كمصباح يحوم حوله ألوفٌ من الفراش والهوام . انني لكذلك اذ لاح لي خاطر جديد فناجيت نفسي قائلاً يا نفس لقد رفضت كلما عرضته عليك من امور هذه الدنيا ، فلم يبقَ الاّ ان أسألك امراً واحداً : أتريدين ان نركب طيارة تطير بنا الى ذرى الفضاء فنكون

على مقربة من الكواكب والنجوم ، فتراعي بهاءها ونعجب لاتساعها وكثرتها . ونسبح فيما لانهاية له من الفضاء ومن هنالك نشرف على الارض وما فيها ونشاهد البحار والسهول والجبال فهلا ترضين ! ! ! . .

وهناك انتصبتُ عابساً شاخص العيون انتظر ما تجيب

فرأيت ان نفسي قد انقبضت واجتمعت كعصفور يتحفزُ للطيران حتى حسبت أنها تقول . نعم ! لكني ارتددتُ الى الوراء اذ انتفضت وقالت بلهجة الموبّخ : لا ! كلا ! ! ! . .

فاخذ مني العجب مأخذه فالتفتُّ اليها وقد ملىء فمي بكلمات اليأس والقنوط وقلت : يا نفسي ! فقاطعتني الكلام وقالت : مهلاً ! . لقد طلبت اليَّ ان اهجر الارض ، فلبيك ولكن اعلم اني لا اكتفي بالوقوف بين الارض والسماء وانما اشتهي وارغب واتوق ان اخترق الفضاء واتغلغل بين الكواكب والنجوم فاجتازها حتى اصل الى الذي خلق الكواكب والنجوم وأوجد المال والجمال ، وابدع العلوم والفنون ، وبسط الارض ورفع السماء حتى اصل الى « الله » فهو خيري الاعظم وفيه محط رغائبي ومجتمع اشواقي. وبعد ان اطلعتُ على رغيبة نفسي رجعت الى غرفتي مطمئناً ساكناً وقلت : اللهمّ اجعل هذا العام عام اقبال وفلاح ، بمنك وكرمك يا ارحم الراحمين

(بيروت)　　الخوري

مارون غصن

تمدن المرأة العصرية

« عودٌ على بدء »

كتبت في العدد الثامن من هذه المجلة الغراء عن المرأة العصرية وكيفية استعمالها التمدن الحديث ، وما جلبته من الاضرار بسبب فهمها قشوره لا لبه . وقد ارسلت على ذلك حضرة الآنسة الاديبة ادما كيرلس رداً لطيفاً ، ذكرت فيه أني رشقت بنات جنسي باحدّ السهام اذ وصفت المرأة التي تقتل الوقت بالزينة ، واهملت ذكر التي تعمل لاكتساب الفضيلة والتحلي بها . وعليه أجيب : ان الذي حملني على وصف النساء المهملات لواجباتهنّ دون المتفانيات في سبيلها هو ان تلك التي تسعى في خدمة العائلة وتضحي الملاهي والمسرات لتحافظ على ترتيب داخليتها ومستقبل صغارها هي قليلة جداً بالنسبة الى العدد الكبير من اخواتها الباقيات ، يوجد منها تقريباً عشر بالمئة . وهذا عدد زهيد لا يبنى عليه حكمٌ ، ولا يقوم بالشرط المطلوب لسدّ الثلمة الواسعة في صرح الترقي والعمران . وعليه فقد تكلمتُ بمقتضى الحالة العمومية التي هي المصدر الحقيقي لكل عامل ان تأخر وان تقدم . غير ان اقوالي اصابت الحقيقةَ عينها ، ولذا جاءت جارحةً لبعض القلوب اللطيفة ، ولكني لم أُبح بهذه الافكار ، الاّ لاعتقادي بوجودنا في عصر النور والمعارف ، عصر الحرية ، حيث لا يجوز حجبُ الافكار عسى ان يُستخرَجَ من كل فكر فائدة ، فنصل بعد ذلك الى الغاية المطلوبة من ازدياد المعارف وارتقاء المدارك

وقد قالت حضرة الكاتبة عاذرةً ، بنوعٍ ما ، التي تتبع المودة ناسبةً هذا لمهارة يديها بعد ان تكون حافظت على نظافة الملابس ، فتمكنت من قلبها حسب الذوق الدارج ، وقد اتت عبارتها هذه في محلها من الحق والعدل . على انه يقال في هذا ما قيل في تلك ، اعني ان المرأة البارعة التي تتزين بفضل مهارتها وتفننها ، ولا تتبع المودة الا بعد ان تكون حافظت على اتمام واجباتها هي من العدد القليل ، وليس لاصلاحها تأثيرٌ يذكر في باب الخراب الواسع . وكم من زهرة ضاعت بين اشواك فخنقت ، وكم من نجمة سترت تحت غيوم السماء فحجب نورها عن الابصار . فلم يظهر للناظر الا الظلام الحالك وهكذا نحن لا يمكننا الا ان نرمي في مقالنا الى العدد الكبير اي الى اللواتي يصرفن الغالي والرخيص في اتباع ما تختلقه ربّاتُ الازياء ، وهذا امر اصبح اشهرَ من نارٍ على علم . فكم من رجل يئن لبذخ امرأته ، وعدم مراعاتها احواله ، وكم من اولادٍ اشرفوا على التهور في دركات الهلاك ، ووالدتهم بشاغلٍ عنهم في اعداد الزينة والتفنن بها . وكم من ابٍ اخنت ظهره متاعبُ الايام ، وبيضت شعرَهُ اهوالُ الزمان ، غير انه يبكي الآن لما يشاهده من اعوجاج الازياء ، وترك البساطة القديمة وعدم اللياقة في الاثواب ، فاصبح ينظر لابنته المتقلدة نظرة المهيب الموبخ واذا لم تعبأ بنظرته يئس وقال : حبذا يومٌ أرى فيه قبل مماتي جاهلتي هذه تبذل النفس والنفيس لتتمثل بالعاقلة ، وتتحلى نظيرها بحلى العلم والفضيلة ، التي لا تشوبها شائبة ولا تؤثر فيها الاهواء والازياء : واننا نرى مثل هذا الاب اباء يبذلون كلّ ما في وسعهم ليبثوا روح البساطة وسلامة الذوق في

قلوب النساء ، وما نقرأه في الجرائد من الانتقاد علينا وعلى ازيائنا يؤيد صحة قولي . فعليه يكون اتباعنا للتقاليد المضرة على رضى تامٍ منا اما لمطابقتها لاذواقنا ودرجة معارفنا ، واما لمراعاتنا أصوات الجهلاء . وعلى كل فان لم يزد عدد المصلحات فينا على عدد المخربات ، فلا أمل بالنجاح ، وعبثاً ننادي بالاصلاح دون الشرط المتقدم

اما ما كان من نزوعنا عن لغتنا العربية الى اللغات الافرنجية فليس من ذنب على الرجال في هذا الباب ، كما زعمت حضرة الكاتبة الاديبة ، بل هم يُعذرون اذا اعتبروا من اتقنت اللغات الغربية دون سواها ، لان معرفة اللغات الاجنبية تدل على زيادة علم وارتقاء ، فضلاً عن انها لغة الاختراعات والمعارف ، ومن لم يتقنها حتى من الرجال لا يمكنه ان يكون عاملاً مفيداً في الهيئة الاجتماعية . على ان هذا لا يمنع ان نحفظ للغتنا المركز الاول خصوصاً وفيها ما لا يقل فائدة عن آداب بقية اللغات ، واذا قلنا بوجوب تعلمها لا نعني الاقتصار عليها فقط ، كلاّ ، بل المراد من ذلك جعلها اللغة الاصلية التي لا يجوز اهمالها مطلقاً ، لانه من الضروري ان يعرف ابن كل امة اداب لغته ، وما فطر عليه اجداده ، وكيف كانت احوال بلاده

فلنا نحن الشرقيين في هذا ما نفاخر به ، ولو ثابرنا نحن ايضا معشر النساء على درس اللغة العربية ، واتقناها كما يجب نظير بقية اللغات ، اذ لم اقل اكثر ، لحملنا الرجال على احترامها واعتبارها فينا بتكريمهم من اتقنت العربية اكثر من سواها . ولكن من اين لنا هذا ونحن نرى ان ام العائلة

اذا ارادت مناغاة ولدها ناغته بلغة اجنبية ، ومتى كبرت ابنتها واسمعتها نصائحها سمعتها الابنة بلسان اجنبي .وعليه تشب هذه الصغيرة وعندها الميل الاكثر الى ما تعودت سماعه فتظن ان اللغة الاجنبية تغنيها عن لغة قومها وهكذا تغفل وتكون على جهل تام من العربية وتاريخها ، . وقد رأينا كثيرات من اللواتي يتجاهلن لغتهن ظناً منهن ان في ذلك مفخرة لهن ، او بالاحرى تفرنجاً . فانظرن ، يا صاحبات الرأي الصائب فينا ، الى هذه الافكار التي سرت في عقول اكثر فتياتنا . أليس هذا دليلاً واضحاً على تاخرنا ؟ وهل يرجى تعميم اللغة العربية وارتفاع شأنها عند الجنس اللطيف وفيه من يحتقرن ويجهلن لهذه الدرجة لغة اجدادهن ؟ لعمري إن لم نسع لاستئصال هذه الاوهام من عقول هؤلاء الاخوات يخشى علينا من زيادة التهور . ولا يجب ان نلق من هذا القبيل كل اتكالنا على الرجال اذ نحن صاحبات التأثير الاكثر مفعولاً في استمالة الرغائب والاميال لكل غاية نقصدها ، فعسى ان ينصرف هذا المقصد الى ما فيه هدايتنا ونهضتنا

واني بكل شكر وسرور ابسط يدي من هذا الوادي لمصافحة اليد التي بسطتها لي اديبة بيروت ، بل اضع يدي بيدها للسير في الدفاع عن بنات جنسنا كل واحدة على طريقتها . كما اني ارجو من سائر اخواتنا ان يطرقن هذه المواضيع التي تدور على شؤوننا الخاصة لان بها العامل الاكبر على ترقينا ونهوضنا عسانا ان نصادف في « الزهور » الطريق المؤدية الى ما فيه خيرنا وفلاحنا

هدى اسكندر

مصر　　كبوك